

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَوَائِدٌ مِنْ حَدِيثِ (مَنْ يُرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علماً، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين. أما بعد:

فهذه ساعة طيبة لحظات كريمة ألتقي أخوة كراماً، زادهم الله كراماً وفضلاً وتوفيقاً ونُبلاً في هذا المكان الطيب المبارك، طيّب الله أعمالنا وأوقاتنا أجمعين وأصلح لنا شأننا كله إنه تبارك وتعالى سميع قريب مجيب. ثم حديثي إلى إخواني: تأملات وفوائد لأحد الأحاديث العظيمة المروية عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم في فضل العلم وفضل حملته؛ ففي الصحيحين عن معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)). هذا الحديث العظيم -معاشر الإخوة الكرام- ينبغي أن نتأمله جيداً؛ فإنه حديثٌ عظيم الشأن جليل القدر كبير الأهمية.

وفي هذا الحديث حث على العلم والتعلم والتفقه في دين الله تبارك وتعالى، وبياناً لفضل من يوفق لسلوك هذا السبيل. وفي الحديث فوائد كثيرة جداً أشير إلى ما تيسر لي من هذه الفوائد:

❖ الأولى: أن الأمور كلها بمشيئة الله، ولا يقع في هذا الكون إلا ما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه وتعالى؛ فالفضل فضله والمنُّ منه والعطاء عطائه ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]، وهذا جانب مهم في العقيدة؛ أن الأمر لله ويده جل وعلا، ولن تؤتَ شيء من العلم أو العمل إلا إن وفقك الله ومنَّ عليك بذلك، فهو الذي يعلّم العبد ما لم يعلم، وهو الذي يوفق العبد للعمل بما تعلم من العلم، فالأمر كله بيده، قد قال عز وجل: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 1-2]، فهذا فضل الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يستحضر هذا المعنى وهذه العقيدة المهمة جداً في هذا الباب وفي كل بابٍ من أبواب الدين، بل في كل باب من مصالح العبد الدينية والدنيوية.

❖ هذا يسوق إلى الفائدة الثانية من هذا الحديث: أهمية التوكل على الله والاستعانة به جل وعلا، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ((اٰخِرُ صَوْلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللّٰهِ))، وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ: ((إِنِّي لِأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدْعُنْ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))؛ فطالب العلم بحاجة في طلبه للعلم إلى معونة الله له في الطلب، وإلى معونة الله له سبحانه وتعالى

في العمل بما تعلّم ، وإلى معونة الله له على الثبات على هذا العلم والعمل الذي وفقه الله إليه ، وإلى معونة الله له ليسلم من الصوارف وهي كثيرة جدًا في طريق الإنسان وسيره إلى الله جل في علاه.

❖ الفائدة الثالثة: أهمية الدعاء في حياة طالب العلم واللجوء الدائم إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن الأمر بيده وطوع تدبيره سبحانه وتعالى، فحاجة العبد إلى الدعاء حاجة ماسّة، وقد قال أحد التابعين -لعله مطّرف بن الشخير- قال: «تأملت الخير فرأيت الخير كثير -الصلاة خير، والصيام خير، والبر خير- الخير كثير، ووجدت أن ذلك كله بيد الله، فأيقنت أن الدعاء مفتاح كل خير»؛ ولهذا ينبغي على العبد أن يُكثر سؤال الله سبحانه وتعالى ولا سيما أن يعلم ما ينفعه. وكلّمكم يعلم أن من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام كما في السنن من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنه يقول كل يوم إذا أصبح بعد السلام من صلاة الصبح : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا ، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)) ، وهذه الثلاث التي جمعها في دعائه في أول يومه هي أهداف المسلم في كل أيامه ، وبدء النبي عليه الصلاة والسلام بالعلم مقدّمًا على غيره في هذه الدعوات يفيد أن العلم هو أولى أولويات المسلم في يومه وفي مقدمته ، فمن الخسارة العظيمة أن يمر على المرء اليوم من أيامه ولا يكون له نصيب من العلم ، هذه خسارة عظيمة أن يمر عليه يوم من أيامه ولا يكون له حظ ونصيب من العلم الشرعي . فهذا الحديث يفيد أن طلب العلم هدف يومي للمرء -هذه فائدة مهمة -ليس في طلب العلم إجازة صيفية ولا إجازة ربيعية ولا غيرها من الإجازات، هو هدف يومي يصاحب المسلم في كل أيامه، ونفسه في جهاد على قدر ما يحصل، ويتفاوت طلاب العلم والمجدون فيه تفاوتًا عظيمًا في هذا الباب.

❖ الفائدة الرابعة من فوائد هذا الحديث العظيم : أن سلوك المسلم لطريق طلب العلم وانشرح صدره في هذا الطريق وإقبال نفسه على التعلم والتفقه في دين الله سبحانه وتعالى من أمارات الخير وعلاماته ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) ، فإذا وجد المرء نفسه منشركة الصدر مقبلة محبة للعلم ، إذا سمع بحلقة علم فرح ، وإذا ذُكر له مجلس من مجالس العلم سُر بذلك وبادر ، وإذا ذكر له كتاب نافع من كتب العلم أقبل عليه ، نفسه منشركة محبة للعلم للتعلم هذا من أمارات الخير ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) .

❖ والفائدة الخامسة هي مفهوم المخالفة لذلك وهي: أن انصراف النفس والعياذ بالله عن العلم وكراهيتها لمجالس العلم وانقباضها من مجالس العلم هذا ليس من أمارات الخير ولا من أمارات التوفيق، إذا رأى المرء من نفسه أنها منقبضة ومستوحشة من مجالس العلم ونافرة منها ولا تميل إليها فهذا ليس من أمارات التوفيق ولا من أمارات إرادة الله سبحانه وتعالى الخير بعبد، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)).

❖ الفائدة السادسة من فوائد هذا الحديث: أن قوله عليه الصلاة والسلام ((يُفْقَهُ فِي الدِّينِ)) يتناول العلم الشرعي في أصوله وفروعه، لأن اشتهر عند الناس أن الفقه هو الأحكام الصلاة والصيام والحج، حتى إذا قيل كتب الفقه يراد بها كتب الأحكام، بينما قوله في هذا الحديث ((يُفْقَهُ فِي الدِّينِ)) تدخل فيه العقيدة دخولاً أولياً، كتب الاعتقاد تدخل دخولاً أولياً، لأن العقيدة هي أعظم الفقه في الدين، والاعتقاد هو أعظم الدين وأجله، بل هو الفقه الأكبر. فقوله عليه الصلاة والسلام ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُ فِي الدِّينِ)) ليس خاصاً في الأحكام بل يتناول تناولاً أولياً العقيدة. ومما يوضح ذلك حديث جبريل المشهور قال: «أَخْبَرَنِي عَنْ الْإِسْلَامِ» ثم قال «أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ» ثم قال «أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ» فبين ذلك كله ثم في تمام الحديث قال: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ))، فالدين هو الإسلام بأعماله، والإيمان بعقائده، والإحسان بإتقان العبد في عبادته لربه وتقربه إليه سبحانه وتعالى جل في علاه بما يرضيه من صالح الأعمال وسديد الأقوال.

❖ الفائدة السابعة من فوائد هذا الحديث: أهمية التفقه الذي هو الفهم، ليس العلم مجرد حفظ للآيات أو للأحاديث، بل هو فهم لها ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [احمد: 24] ، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: 68] ، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] . فالفهم هو الذي يثنى على المرء إذا وفق له ، والناس يتفاوتون في الفهم والفقه في دين الله سبحانه وتعالى تفاوتاً عظيماً، ولهذا قد يحمل شخص علماً ويقصُر عن فهمه ، و((رُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)) ، قد يذكر طالب علم لعالم حديثاً يكون هذا العلم لا يعرفه لكن يستظهر منه فوائد لم تكن في ذهن ذاك الذي كان حافظاً لذلك الحديث ، فهذا الحديث يفيد أهمية التفقه في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام والفهم لمعانيها ، ليس أيضاً مجرد الفقه والفهم معزولاً عن العمل بل فقهاً يثمر عملاً وطاعة وهذا هو المعنى بالحديث ، المعنى بالحديث أن يفقه دين الله فقهاً يثمر بصاحبه عملاً بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ويثمر دعوة كما في الآية الكريمة في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 122] ، فربط الفقه بالندارة ، والندارة مترتبة على عمل الشخص ؛ فهو يفقه أولاً ، يتعلم فيفقه فيعمل فيُنذر ؛ وهذا هو التدرج في العلم والتلقي والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بذلك .

الحاصل أن هذا حديث عظيم جداً في هذا الباب؛ باب الفقه في دين الله سبحانه وتعالى، ومن أهم ما يكون في هذا الباب قصد التقرب إلى الله، لأنه ما تُقرب إلى الله سبحانه وتعالى بمثل طلب العلم على المعنى الذي تقدم ذكره؛ أن يتعلم ليفقه دين الله ليفهم شرع الله، ثم ليعمل بما تعلم، ثم ليُنذر ويبين لغيره ما تلقاه من العلم.

والتوفيق بيد الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، نسأله جل في علاه أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجمعنا دائما على الحق والهدى، وأن يصلح لنا شأننا كله وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين. اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، نسأله جل في علاه أن يصلح ذات بيننا، وأن يؤلف بين قلوبنا، وأن يخرجنا من الظلمات إلى النور بمنه وكرمه إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

شاكرًا لجميع الإخوة الكرام إتاحتهم هذه الفرصة لي أن أسعد بلقائهم والجلوس معهم، ونسأل الله أن يجعل هذا المجلس مجلسًا مقربًا إلى الله سبحانه وتعالى. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلّى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

<http://al-badr.net/download/esound/kalimah/man-yuridillahu-khiraan.mp3>